# تفسير سُورة سَبأ

## وهي مكية

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى لَهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَهُ ٱلْحَمْدُ فِى ٱلْءَاخِرَةِ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ ۝ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ ٱلرَّحِيمُ ٱلْغَفُورُ ۝ ﴾

يخبر تعالى عن نفسه الكريمة : أن له الحمدَ المطلق فى الدنيا والآخرة ؛ لأنه المنعم المتفضل على أهل الدنيا والآخرة ، المالك لجميع ذلك ، الحاكم فى جميع ذلك ، كما قال تعالى : ﴿ وَهُوَ اللَّهُ لا إِلَٰهَ إِلا هُوَ لَهُ الْحَمْدُ فِي الأُولَىٰ وَالآخِرَةِ وَلَهُ الْحُكْمُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [ القصص : ٧٠ ] ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ أى : الجميع ملكه وعبيده وتحت قهره وتصرفه ، قال تعالى : ﴿ وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأُولَىٰ ﴾ [ الليل : ١٣ ] .

ثم قال عز وجل: ﴿ وَلَهُ الْحَمْدُ فِي الآخِرَةِ ﴾، فهو المعبود أبدا،المحمود على طول المدى ﴿وَهُوَ الْحَكِيمُ﴾ أى : فى أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره ﴿ الْخَبِيرُ ﴾ الذى لا تخفى عليه خافية ، ولا يغيب عنه شيء .

وقال الزهرى : خبير بخلقه ، حكيم بأمره ؛ ولهذا قال : ﴿ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا ﴾ أى : يعلم عدد القطر النازل فى أجزاء الأرض ، والحب المبذور والكامن فيها ، ويعلم ما يخرج من ذلك : عدده وكيفيته وصفاته ﴿ وَمَا يَنزِلُ مِنَ السَّمَاءِ ﴾ أى : من قطر ورزق ﴿ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ﴾ أى : من الأعمال الصالحة وغير ذلك ﴿ وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ ﴾ أى : الرحيم بعباده فلا يعاجل عُصاتهم بالعقوبة ، الغفور عن ذنوب التائبين إليه المتوكلين عليه .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَا تَأْتِينَا ٱلسَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّى لَتَأْتِيَنَّكُمْ عَٰلِمِ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَآ أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَآ أَكْبَرُ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ ۝ لِّيَجْزِىَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ۝ وَٱلَّذِينَ سَعَوْ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ۝ وَيَرَى ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ ٱلْحَقَّ وَيَهْدِىٓ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَمِيدِ ۝ ﴾

هذه إحدى الآيات الثلاث التى لا رابع لهن ، مما أمر الله رسولَه ﷺ أن يقسم بربه العظيم على وقوع المعاد لَمَّا أنكره من أنكره من أهل الكفر والعناد ، فإحداهن فى سورة يونس عليه السلام ، وهى قوله تعالى: ﴿ وَيَسْتَنبِئُونَكَ أَحَقٌّ هُوَ قُلْ إِي وَرَبِّي إِنَّهُ لَحَقٌّ وَمَا أَنتُم بِمُعْجِزِينَ ﴾ [ يونس : ٥٣ ]، والثانية هذه : ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لا تَأْتِينَا السَّاعَةُ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾ ، والثالثة فى التغابن وهى قوله تعالى: ﴿ زَعَمَ الَّذِينَ

كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ ﴾ [ التغابن : ٧ ]، فقال تعالى : ﴿ قُلْ بَلَىٰ وَرَبِّي لَتَأْتِيَنَّكُمْ ﴾، ثم وصفه بما يؤكد ذلك ويقرره فقال : ﴿ عَالِمِ الْغَيْبِ لَا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَلَا أَصْغَرُ مِن ذَٰلِكَ وَلَا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال مجاهد وقتادة : ﴿ لا يعزب عنه ﴾ : لا يغيب عنه ، أى : الجميع مندرج تحت علمه فلا يخفى عليه منه شيء ، فالعظام وإن تلاشت وتفرقت وتمزقت ، فهو عالم أين ذهبت وأين تفرقت ، ثم يعيدها كما بدأها أول مرة ، فإنه بكل شيء عليم .

ثم بين حكمته فى إعادة الأبدان وقيام الساعة بقوله : ﴿ لِيَجْزِيَ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أُولَٰئِكَ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ . وَالَّذِينَ سَعَوْا فِي آيَاتِنَا مُعَاجِزِينَ ﴾ أى : سعوا فى الصد عن سبيل الله وتكذيب رسله ﴿ أُولَٰئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مِّن رِّجْزٍ أَلِيمٌ ﴾ أى : لينعم السعداء من المؤمنين ، ويعذب الأشقياء من الكافرين ، كما قال : ﴿ لَا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ [ الحشر : ٢٠ ] ، وقال تعالى : ﴿ أَمْ نَجْعَلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ كَالْمُفْسِدِينَ فِي الْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ الْمُتَّقِينَ كَالْفُجَّارِ ﴾ [ ص : ٢٨ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ هُوَ الْحَقَّ ﴾ : هذه حكمة أخرى معطوفة على التى قبلها ، وهى أن المؤمنين بما أنزل على الرسل إذا شاهدوا قيام الساعة ومجازاة الأبرار والفجار بالذى كانوا قد علموه من كتب الله فى الدنيا رأوه حينئذ عين اليقين ، ويقولون يومئذ أيضًا : ﴿ لَقَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ ﴾ [ الاعراف : ٤٣ ]، ويقال أيضا: ﴿ هَٰذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَٰنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ ﴾ [ يس : ٥٢ ]، ﴿ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَىٰ يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَٰذَا يَوْمُ الْبَعْثِ ﴾ [ الروم : ٥٦ ] ، ﴿ وَيَهْدِي إِلَىٰ صِرَاطِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ ﴾ العزيز هو : المنيع الجناب ، الذى لا يُغالب ولا يُمانع ، بل قد قهر كل شيء ، الحميد فى جميع أقواله وأفعاله وشرعه ، وقدره ، وهو المحمود فى ذلك كله .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّكُمْ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ۝ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِن نَّشَأْ نَخْسِفْ بِهِمُ الْأَرْضَ أَوْ نُسْقِطْ عَلَيْهِمْ كِسَفًا مِّنَ السَّمَاءِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لِّكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝ ﴾

هذا إخبار من الله عن استبعاد الكفرة الملحدين قيامَ الساعة واستهزائهم بالرسول ﷺ فى إخباره بذلك: ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ نَدُلُّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ يُنَبِّئُكُمْ إِذَا مُزِّقْتُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ ﴾ أى : تفرقت أجسادكم فى الأرض وذهبت فيها كل مذهب وتمزقت كل ممزق ﴿ إِنَّكُمْ ﴾ أى : بعد هذا الحال ﴿ لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾ أى : تعودون أحياء ترزقون بعد ذلك ، وهو فى هذا الإخبار لا يخلو أمره من قسمين : إما أن يكون قد تعمد الافتراء على الله أنه قد أوحى إليه ذلك ، أو أنه لم يتعمد لكن لُبِّس عليه كما يُلَبَّس على المعتوه والمجنون ؛ ولهذا قالوا : ﴿ أَفْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَم بِهِ جِنَّةٌ ﴾ قال الله عز وجل رادًا عليهم: ﴿ بَلِ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ فِي الْعَذَابِ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ أى : ليس الأمر كما زعموا ولا كما ذهبوا إليه، بل محمد ﷺ هو الصادق البار الراشد الذى جاء بالحق ، وهم الكذبة الجهلة الأغبياء ﴿ فِي الْعَذَابِ ﴾ أى : الكفر المفضى بهم إلى عذاب الله ﴿ وَالضَّلَالِ الْبَعِيدِ ﴾ من الحق فى الدنيا .

ثم قال منبهًا لهم على قدرته فى خلق السموات والأرض ، فقال تعالى : ﴿ أَفَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا بَيْنَ

أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ أى : حيثما توجهوا وذهبوا فالسماء مُظلة عليهم ، والأرض تحتهم، كما قال: ﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون . والأرض فرشناها فنعم الماهدون ﴾ [ الذاريات: ٤٧ ، ٤٨ ]. عن قتادة : ﴿ أفلم يروا إلى ما بين أيديهم وما خلفهم من السماء والأرض ﴾ قال : إنك إن نظرت عن يمينك أو عن شمالك ، أو من بين يديك أو من خلفك ، رأيت السماء والأرض .

وقوله تعالى : ﴿ إن نشأ نخسف بهم الأرض أو نسقط عليهم كسفا من السماء ﴾ أى : لو شئنا لفعلنا بهم ذلك وقدرتنا عليهم ، ولكن نؤخر ذلك لحلمنا وعفونا . ثم قال : ﴿ إن في ذلك لآية لكل عبد منيب ﴾ قال قتادة : المنيب : المقبل إلى الله عز وجل . أى : إن فى النظر إلى خلق السماء والأرض لدلالة لكل عبد فَطِن لبيب رَجَّاع إلى الله ، على قدرة الله تعالى على بعث الأجساد ووقوع المعاد؛ لأن من قدر على خلق هذه السموات فى ارتفاعها واتساعها ، وهذه الأرضين فى انخفاضها وأطوالها وأعراضها ، إنه لقادر على إعادة الأجسام ونشر الرميم من العظام ، كما قال تعالى : ﴿ أوليس الذي خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم [1] بلى ﴾ [ يس : ٨١ ] ، وقال : ﴿ لخلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ [ غافر : ٥٧ ] .

﴿ ۞ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُۥدَ مِنَّا فَضْلًا ۖ يَـٰجِبَالُ أَوِّبِى مَعَهُۥ وَٱلطَّيْرَ ۖ وَأَلَنَّا لَهُ ٱلْحَدِيدَ ۝ أَنِ ٱعْمَلْ سَـٰبِغَـٰتٍ وَقَدِّرْ فِى ٱلسَّرْدِ ۖ وَٱعْمَلُوا۟ صَـٰلِحًا ۖ إِنِّى بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۝ ﴾

يخبر تعالى عما أنعم به على عبده ورسوله داود ، صلوات الله وسلامه عليه ، ، مما آتاه من الفضل المبين ، وجمع له بين النبوة والملك المتمكن ، والجنود ذوى العَدَد والعُدَد ، وما أعطاه ومنحه من الصوت العظيم ، الذى كان إذا سبح به تسبح معه الجبال الراسيات ، الصم الشامخات ،وتقف له الطيور السارحات ، والغاديات والرائحات ، وتجاوبه بأنواع اللغات . وفى الصحيح أن رسول الله ﷺ سمع صوت أبى موسى الأشعرى يقرأ من الليل ، فوقف فاستمع لقراءته ، ثم قال ﷺ « لقد أوتى هذا مزمارًا من مزامير آل داود » [2] . وقال أبو عثمان النهدى : ما سمعت صوت صَنج ولا بَربَط ولا وَتَر أحسن من صوت أبى موسى الأشعرى .

ومعنى قوله : ﴿ أوبي ﴾ التأويب فى اللغة هو الترجيع ، فأمرت الجبال والطير أن ترجع معه بأصواتها . أى : رَجِّعى مُسَبِّحة معه ، والله أعلم .

وقوله تعالى: ﴿وألنا له الحديد﴾ قال الحسن البصرى ، وقتادة ، والأعمش وغيرهم : كان لا يحتاج أن يُدخله نارًا ولا يضربه بمطرقة ، بل كان يفتله بيده مثل الخيوط ؛ ولهذا قال : ﴿ أن اعمل سابغات ﴾ وهى: الدروع. قال قتادة: وهو أول من عملها من الخلق، وإنما كانت قبل ذلك صفائح ﴿وقدر في السرد﴾: هذا إرشاد من الله تعالى لنبيه داود، عليه السلام، فى تعليمه صنعة الدروع. قال مجاهد فى قوله: ﴿وقدر في السرد﴾: لا تُدقّ المسمار فَيقلَق فى الحلقة، ولا تُغلّظه فيفصمها، واجعله بقدر. وقال الحكم بن عُتَيبة: لا تُغلّظه فيفصم، ولا تُدقّه فيقلَق. وهكذا روى عن قتادة، وغير واحد. وقال ابن عباس: السرد: حلَق الحديد . وقال بعضهم : يقال : درع مسرودة : إذا كانت مسمورة الحلق .

(١) فى المخطوطة : «على أن يحيى الموتى» وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه.
(٢) البخارى (٥٠٤٨)، ومسلم (٧٩٣/٢٣٥).

وقوله تعالى : ﴿ واعملوا صالحا ﴾ أى : فى الذى أعطاكم الله من النعم ﴿ إنى بما تعملون بصير ﴾ أى: مراقب لكم ، بصير بأعمالكم وأقوالكم ، لا يخفى على من ذلك شىء .

﴿ وَلِسُلَيْمَٰنَ ٱلرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ ۖ وَأَسَلْنَا لَهُۥ عَيْنَ ٱلْقِطْرِ ۖ وَمِنَ ٱلْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِۦ ۖ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُۥ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَٰرِيبَ وَتَمَٰثِيلَ وَجِفَانٍ كَٱلْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَٰتٍ ۚ ٱعْمَلُوٓا۟ ءَالَ دَاوُۥدَ شُكْرًا ۚ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِىَ ٱلشَّكُورُ ﴿١٣﴾ ﴾

لما ذكر تعالى ما أنعم به على داود ، عطف بذكر ما أعطى ابنه سليمان عليهما الصلاة والسلام ، من تسخير الريح له تحمل بساطه ﴿ غدوها شهر ورواحها شهر ﴾ .

قال الحسن البصرى : كان يغدو على بساطه من دمشق فينزل بإصطخر يتغدّى بها ، ويذهب رائحا من إصطخر فيبيت بكابل ، وبين دمشق وإصطخر شهر كامل للمسرع ، وبين إصطخر وكابل شهر كامل للمسرع .

وقوله تعالى: ﴿ وأسلنا له عين القطر ﴾ قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعكرمة، وغير واحد : القطر: النحاس . قال قتادة : وكانت باليمن ، فكل ما يصنع الناس مما أخرج الله تعالى لسليمان ، عليه السلام . قال السدى : وإنما أسيلت له ثلاثة أيام .

وقوله تعالى : ﴿ ومن الجن من يعمل بين يديه بإذن ربه ﴾ أى : وسخرنا له الجن يعملون بين يديه بإذن الله ، أى : بقدره ، وتسخيره لهم بمشيئته ما يشاء من البنايات وغير ذلك ﴿ ومن يزغ منهم عن أمرنا ﴾ اى : ومن يعدل ويخرج منهم عن الطاعة ﴿ نذقه من عذاب السعير ﴾ وهو الحريق .

وقال الحسن : الجن ولد إبليس ، والإنس ولد آدم ، ومن هؤلاء مؤمنون ومن هؤلاء مؤمنون ، وهم شركاؤهم فى الثواب والعقاب ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء مؤمنا فهو ولى الله ، ومن كان من هؤلاء وهؤلاء كافرا فهو شيطان . وقوله تعالى : ﴿ يعملون له ما يشاء من محاريب وتماثيل ﴾ : أما المحاريب فهى البناء الحسن، وهو أشرف شىء فى المسكن وصدره . وقال مجاهد : المحاريب بنيان دون القصور. وقال الضحاك : هى المساجد . وقال قتادة : هى المساجد والقصور ، وقال ابن زيد : هى المساكن . وأما التماثيل فقال عطية العوفى ، والضحاك والسدى : التماثيل : الصور . قال مجاهد :وكانت من نحاس . وقال قتادة : من طين وزجاج .

وقوله تعالى : ﴿ وجفان كالجواب وقدور راسيات ﴾ الجواب : جمع جابية ، وهى الحوض الذى يجبى فيه الماء، وقال على بن أبى طلحة ، عن ابن عباس : ﴿ كالجواب ﴾ أى : كالجوبة من الأرض. وقال العوفى ، عنه : كالحياض . وكذا قال مجاهد ، والحسن ، وقتادة ، والضحاك وغيرهم. والقدور الراسيات : أى الثابتات ، فى أماكنها لا تتحول ولا تتحرك عن أماكنها لعظمها . كذا قال مجاهد ، والضحاك ، وغيرهما . وقال عكرمة : أثافيها منها .

وقوله تعالى : ﴿ اعملوا آل داود شكرا ﴾ اى : وقلنا لهم اعملوا شكرًا على ما أنعم به عليكم فى الدنيا والدين . وشكرًا : مصدر من غير الفعل ، أو أنه مفعول له ، وعلى التقديرين فيه دلالة على أن

الشكر يكون بالفعل كما يكون بالقول وبالنية . قال أبو عبد الرحمن السلمى: الصلاة شكر ، والصيام شكر، وكل خير تعمله لله شكر . وأفضل الشكر الحمد . رواه ابن جرير. وروى هو وابن أبى حاتم، عن محمد بن كعب القُرَظى قال: الشكر تقوى الله والعمل الصالح. وهذا يقال لمن هو متلبس بالفعل، وقد كان آل داود ، عليه السلام، كذلك قائمين بشكر الله قولا وعملا. وفى الصحيحين عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إن أحب الصلاة إلى الله صلاةُ داودَ ، كان ينام نصف الليل ويقوم ثلثه وينام سدسه، وأحب الصيام إلى الله صيام داود ، كان يصوم يوما ويفطر يوما. ولا يَفر إذا لاقى » (١).

وقوله: ﴿ وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ﴾ : إخبار عن الواقع .

﴿ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَىٰ مَوْتِهِ إِلَّا دَابَّةُ الْأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ ۖ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ ﴿١٤﴾ ﴾

يذكر تعالى كيفية موت سليمان ، عليه السلام ، وكيف عَمَّى الله موته على الجانّ المسخرين له فى الأعمال الشاقة، فإنه مكث متوكئًا على عصاه ـ وهى مِنْسَأته ـ كما قال ابن عباس، ومجاهد ، والحسن، وقتادة وغير واحد ـ مدة طويلة نحوا من سنة ، فلما أكلتها دابةُ الأرض ، وهى الأرضة، ضعفت وسقط إلى الأرض ، وعلم أنه قد مات قبل ذلك بمدة طويلة ـ تبينت الجن والإنس أيضًا أن الجن لا يعلمون الغيب ، كما كانوا يتوهمون ويوهمون الناس ذلك .

﴿ لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ آيَةٌ ۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍ ۖ كُلُوا مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ ۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾ فَأَعْرَضُوا فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا ۖ وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴿١٧﴾ ﴾

كانت سبأ ملوكَ اليمن وأهلها ، وكانت التبابعة منهم ، وبلقيس ـ صاحبة سليمان ـ منهم ، وكانوا فى نعمة وغبطة فى بلادهم ، وعيشهم واتساع أرزاقهم وزروعهم وثمارهم . وبعث الله إليهم الرسل تأمرهم أن يأكلوا من رزقه ، ويشكروه بتوحيده وعبادته ، فكانوا كذلك ما شاء الله ثم اعرضوا عما أمروا به ، فعوقبوا بإرسال السيل والتفرق فى البلاد أيدى سبأ ، شذر مَذَر .

روى الإمام أحمد عن عبد الرحمن بن وَعْلة قال : سمعت ابن عباس يقول : إن رجلا سأل رسول الله ﷺ عن سبأ : ما هو ؟ رجل أم امرأة أم أرض ؟ قال : « بل هو رجل ، ولد عَشْرة ، فسكن اليمن منهم ستة ، وبالشام منهم أربعة ، فأما اليمانيون : فَمَذْحِجُ ، وكِندَةُ ، والأزد ، والأشعريون ، وأنمار، وحمير . وأما الشامية فلخم ، وجذام ، وعاملة، وغسان » وهذا إسناد حسن ، ولم يخرجوه (٢)، وقد رواه الحافظ أبو عمر بن عبد البر فى كتاب «القصد والأمم، بمعرفة أصول أنساب العرب والعجم » عن ابن عباس فذكر نحوه . وروى ابن جرير عن فَرْوَة بن مُسَيْك الغُطَيْفى قال : قال

---

(١) البخارى (١١٣١) ومسلم (١١٥٩/ ١٨١).

(٢) المسند ( ٢٩٠٠) وقال الشيخ أحمد شاكر: «إسناده صحيح».

رجل: يا رسول الله ، أخبرنى عن سبأ : ما هو ؟ أرض ، أم امرأة ؟ قال : « ليس بأرض ولا امرأة، ولكنه رجل ولد عشرة من الولد ، فتيامن ستة وتشاءم أربعة ، فأما الذين تشاءموا : فلخم وجذام وعاملة وغسان ، وأما الذين تياسنوا : فكندة : والأشعريون ، والأزد ، ومذحج ، وحمير ، وأنمار » . فقال رجل : ما أنمار؟ قال : « الذين منهم خثعم وبجيلة » . ورواه الترمذى أبسط من هذا ، ثم قال : هذا حديث حسن غريب (١) . وروى أبو عمر بن عبد البر: عن تميم الدارى؛ أن رجلا أتى رسول الله ﷺ فسأله عن سبأ ، فذكر مثله ، فقوى هذا الحديث وحَسّن . قال علماء النسب ، منهم محمد بن إسحاق : اسم سبأ : عبد شمس بن يشجب بن يعرب بن قحطان . وإنما سمى سبأ لأنه أول من سبأ فى العرب ، وكان يقال له : الرائش ؛ لأنه أول من غنم فى الغزو فأعطى قومه ، فسمى الرائش ، والعرب تسمى المال : ريشا ورياشا .

ومعنى قوله عليه السلام : « كان رجلا من العرب » يعنى : العرب العاربة الذين كانوا قبل الخليل، عليه السلام ، من سلالة سام بن نوح . وفى صحيح البخارى : أن رسول الله ﷺ مر بنفر من « أسلَمَ » ينتضلون ، فقال : « ارموا بنى إسماعيل ، فإن أباكم كان راميا » (٢) . فأسلم قبيلة من الأنصار ، والأنصار أوسها وخزرجها من غسان من عرب اليمن من سبأ ، نزلوا بيثرب لما تفرقت سبأ فى البلاد ، حين بعث الله عليهم سيل العرم ، ونزلت طائفة منهم بالشام ، وإنما قيل لهم : غَسّان بماء نزلوا عليه قيلَ : باليمن . وقيل : إنه قريب من المُشَلَّل .

ومعنى قوله : « ولد له عشرة من العرب » أى : كان من نسله هؤلاء العشرة الذين يرجع إليهم أصول القبائل من عرب اليمن ، لا أنهم ولدوا من صلبه ، بل منهم من بينه وبينه الأبوان والثلاثة والأقل والأكثر ، كما هو مقرر مبين فى مواضعه من كتب النسب .

ومعنى قوله : « فتيامن منهم ستة ، وتشاءم منهم أربعة » أى : بعد ما أرسل الله عليهم سيل العرم ، منهم من أقام ببلادهم ، ومنهم من نزح عنها إلى غيرها ، وكان من أمر السد أنه كان الماء يأتيهم من بين جبلين وتجتمع إليه أيضا سيول أمطارهم وأوديتهم ، فعَمَدَ ملوكهم الأقادم ، فبنوا بينهما سدًا عظيما محكما حتى ارتفع الماء ، وحُكِمَ على حافات ذينك الجبلين ، فغرسوا الأشجار واستغلوا الثمار فى غاية ما يكون من الكثرة والحسن ، كما ذكر غير واحد من السلف ، منهم قتادة : أن المرأة كانت تمشى تحت الأشجار وعلى رأسها مكتل أو زنبيل ، وهو الذى تخترف فيه الثمار ، فيتساقط من الأشجار فى ذلك ما يملؤه من غير أن يحتاج إلى كلفة ولا قُطَّاف ، لكثرته ونضجه واستوائه ، وكان هذا السد بمأرب : بلدة بينها وبين صنعاء ثلاث مراحل ، ويعرف بسد مأرب .

وذكر آخرون أنه لم يكن ببلدهم شىء من الذباب ولا البعوض ولا البراغيث ، ولا شىء من الهوام ، وذلك لاعتدال الهواء وصحة المزاج وعناية الله بهم ، ليوحدوه ويعبدوه ، كما قال تعالى : ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسَاكِنِهِمْ آيَةٌ﴾ ، ثم فسرها بقوله : ﴿جَنَّتَانِ عَنْ يَمِينٍ وَشِمَالٍ﴾ أى : من ناحيتى الجبلين والبلدة بين ذلك ، ﴿كُلُوا مِنْ رِزْقِ رَبِّكُمْ وَاشْكُرُوا لَهُ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ﴾ أى : غفور لكم إن استمررتم على التوحيد.

---

(١) ابن جرير فى التفسير (٢٢/٥٣)، والترمذى (٣٢٢٢) وقال الألبانى: «حسن صحيح».
(٢) البخارى (٧ ـ ٣٥).

وقوله : ﴿ فَأَعْرَضُوا ﴾ أى : عن توحيد الله وعبادته وشكره على ما أنعم به عليهم ، وعدلوا إلى عبادة الشمس ، كما قال هدهد سليمان : ﴿ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ . إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ . وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴾ [ النمل : ٢٢ ـ ٢٤ ] .

وقوله : ﴿ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ الْعَرِمِ ﴾ : قيل : المراد بالعرم المياه . وقيل : الوادى . وقيل : الجُرَذ . وقيل : الماء الغزير . فيكون من باب إضافة الاسم إلى صفته ، مثل : « مسجد الجامع » . و« سعيد كُرْز » حكى ذلك السهيلى . وذكر غير واحد منهم ابن عباس ، ووهب بن منبه ، وقتادة ، والضحاك ؛ أن الله ، عز وجل ، لما أراد عقوبتهم بإرسال العرم عليهم ، بعث على السد دابة من الأرض ، يقال لها : « الجُرَذ » نقبته ـ قال وهب بن منبه : وقد كانوا يجدون فى كتبهم أن سبب خراب هذا السد هو الجُرَذ فكانوا يرصدون عنده السنانير برهة من الزمان ، فلما جاء القدر غلبت الفأر السنانير ، وولجت إلى السَّدّ فنقبته ، فانهار عليهم .

وقال قتادة وغيره : الجُرَذ : هو الخَلْد ، نقبت أسافله حتى إذا ضَعف ووَهَى ، وجاءت أيام السيول ، صَدَمَ الماءُ البناءَ فسقط ، فانساب الماء فى أسفل الوادى ، وخرَّبَ ما بين يديه من الأبنية والأشجار وغير ذلك ، ونضب الماء عن الأشجار التى فى الجبلين عن يمين وشمال ، فيبست وتحطمت ، وتبدلت تلك الأشجار المثمرة الأنيقة النضرة ، كما قال الله تعالى : ﴿ وَبَدَّلْنَاهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَيْ أُكُلٍ خَمْطٍ ﴾ . قال ابن عباس ، ومجاهد ، وعِكْرِمة ، وعطاء الخُراسانى ، والحسن ، وقتادة ، والسُّدِّى : وهو الأراك ، وأكلة البَرير . ﴿ وَأَثْلٍ ﴾ : قال العوفى ، عن ابن عباس : هو الطَّرْفاء . وقال غيره : هو شجر يشبه الطرفاء . وقيل : هو السَّمُر . فالله أعلم .

وقوله : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ : لما كان أجودَ هذه الأشجار المبدل بها هو السِّدْر قال : ﴿ وَشَيْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴾ ، فهذا الذى صار أمر تينك الجنتين إليه ، بعد الثمار النضيجة والمناظر الحسنة ، والظلال العميقة والأنهار الجارية ، تبدلت إلى شجر الأراك والطرفاء والسِّدْر ذى الشوك الكثير والثمر القليل . وذلك بسبب كفرهم وشركهم بالله ، وتكذيبهم الحق وعدولهم عنه إلى الباطل ؛ ولهذا قال : ﴿ ذَلِكَ جَزَيْنَاهُم بِمَا كَفَرُوا وَهَلْ نُجَازِي إِلَّا الْكَفُورَ ﴾ أى : عاقبناهم بكفرهم . قال مجاهد : ولا يعاقب إلا الكفور . وقال الحسن البصرى : صدق الله العظيم . لا يعاقب بمثل فعله إلا الكفور . وقال طاوس : لا يناقش إلا الكفور .

وعن ابن خيرة ـ وكان من أصحاب على ، رضى الله عنه ـ قال : جزاء المعصية الوهن فى العبادة ، والضيق فى المعيشة ، والتعسر فى اللذة . قيل : وما التعسر فى اللذة ؟ قال : لا يصادف لذة حلال إلا جاءه من يُنَغِّصه إياها .

﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا قُرًى ظَاهِرَةً وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴿١٨﴾ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴿١٩﴾ ﴾

يذكر تعالى ما كانوا فيه من الغِبْطة والنعمة ، والعيش الهنى الرغيد ، والبلاد الرخية ، والأماكن الآمنة ، والقرى المتواصلة المتقاربة ، بعضها من بعض ، مع كثرة أشجارها وزروعها وثمارها ، بحيث إن مسافرهم لا يحتاج إلا حَمل زاد ولا ماء ، بل حيث نزل وجد ماء وثمرا ، ويَقيل فى قرية ويبيت فى أخرى، بمقدار ما يحتاجون إليه فى سيرهم ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْقُرَى الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا ﴾، قال وهب بن منبه : هى قرى بصنعاء . وكذا قال أبو مالك . وقال مجاهد ، والحسن ، وسعيد بن جبير ، زيد بن أسلم ، وقتادة ، والضحاك ، والسُّدِّى ، وابن زيد وغيره : يعنى : قرى الشام . يعنون أنهم كانوا يسيرون من اليمن إلى الشام فى قرى ظاهرة متواصلة . وقال ابن عباس : القرى التى باركنا فيها : بيت المقدس . وقال أيضا : هى قرى عربية بين المدينة والشام .

﴿ قُرًى ظَاهِرَةً ﴾ اى : بينة واضحة ، يعرفها المسافرون ، يَقيلون فى واحدة ، ويبيتون فى أخرى؛ ولهذا قال : ﴿ وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ ﴾ ، أى : جعلناها بحسب ما يحتاج المسافرون إليه ﴿سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّامًا آمِنِينَ ﴾ أى : الأمن حاصل لهم فى سيرهم ليلا ونهارا .

﴿ فَقَالُوا رَبَّنَا بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ وذلك أنهم بَطِروا هذه النعمة ـ كما قاله ابن عباس ، ومجاهد ، والحسن ، وغير واحد ـ وأحبوا مفاوز ومهامه يحتاجون فى قطعها إلى الزاد والرواحل والسير فى الحَرُور والمخاوف ، كما طلب بنو إسرائيل من موسى أن يخرج الله لهم مما تنبت الأرض ، من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها ، مع أنهم كانوا فى عيش رغيد فى مَنّ وسلوى وما يشتهون من مآكل ومشارب وملابس مرتفعة ؛ ولهذا قال لهم: ﴿أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ اهْبِطُوا مِصْرًا فَإِنَّ لَكُمْ مَا سَأَلْتُمْ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ الذِّلَّةُ وَالْمَسْكَنَةُ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ ﴾ [ البقرة : ٦١ ] ، وقال عز وجل : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ﴾ [ القصص : ٥٨ ] ، وقال تعالى : ﴿ وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ [ النحل : ١١٢ ] . وقال فى حق هؤلاء : ﴿وَظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ﴾ ، أى : بكفرهم ﴿ فَجَعَلْنَاهُمْ أَحَادِيثَ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّقٍ﴾ أى : جعلناهم حديثا للناس ، وَسَمَرًا يتحدثون به من خبرهم ، وكيف مكر الله بهم ، وفرق شملهم بعد الاجتماع والألفة والعيش الهنىء تفرقوا فى البلاد هاهنا وهاهنا ؛ ولهذا تقول العرب فى القوم إذا تفرقوا : « تفرقوا أيدى سبأ » و« وأيادى سبأ » و « تفرقوا شَذَرَ مَذَرَ » .

وقوله تعالى : ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ أى : إن فى هذا الذى حل بهؤلاء من النقمة والعذاب ، وتبديل النعمة وتحويل العافية ، عقوبة على ما ارتكبوه من الكفر والآثام ـ لعبرةً ودَلالةً لكل عبد صبار على المصائب ، شكور على النعم . وفى الصحيحين من حديث أبى هريرة : «عجبًا للمؤمن، لا يقضى الله له قضاء إلا كان خيرا ، إن أصابته سراء شكر فكان خيرا له ، وإن أصابته ضراء صبر فكان خيرا له . وليس ذلك لاحد إلا للمؤمن »[1] .

قال قتادة: ﴿ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِكُلِّ صَبَّارٍ شَكُورٍ ﴾ قال: كان مطرّف يقول : نعم العبد الصبار الشكور، الذى إذا أعطى شكر ، وإذا ابتلى صبر .

﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِمْ مِنْ

(١) مسلم (٢٩٩٩/ ٦٤) ، وأحمد (٤/ ٣٣٢) عن صهيب رضى الله عنه ولم نقف على رواية أبى هريرة .

سُلْطَٰنٍ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِٱلْءَاخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِى شَكٍّ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَفِيظٌ ﴿٢١﴾

لما ذكر تعالى قصة سبأ وما كان من أمرهم فى اتباعهم الهوى والشيطان ، أخبر عنهم وعن أمثالهم ممن اتبع إبليس والهوى ، وخالف الرشاد والهدى، فقال : ﴿ وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴾ . قال ابن عباس وغيره : هذه الآية كقوله تعالى إخباراً عن إبليس حين امتنع من السجود لآدم ، ثم قال: ﴿ أَرَأَيْتَكَ هَٰذَا الَّذِي كَرَّمْتَ عَلَيَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [ الإسراء : ٦٢ ] ، وقال : ﴿ ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَن شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ ﴾ [ الاعراف : ١٧ ] والآيات فى هذا كثيرة .

وقوله : ﴿ وَمَا كَانَ لَهُ عَلَيْهِم مِّن سُلْطَانٍ ﴾ قال ابن عباس : أى من حجة . وقال الحسن البصرى : والله ما ضربهم بعصا ، ولا أكرههم على شىء ، وما كان إلا غرورا وأمانى دعاهم إليها فأجابوه .

وقوله : ﴿ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يُؤْمِنُ بِالْآخِرَةِ مِمَّنْ هُوَ مِنْهَا فِي شَكٍّ ﴾ أى : إنما سلطناه عليهم ليظهر أمر من هو مؤمن بالآخرة وقيامها والحساب فيها والجزاء ، فيُحسِنَ عبادة ربه عز وجل فى الدنيا ، ممن هو منها فى شك ﴿ وَرَبُّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ حَفِيظٌ ﴾ أى : ومع حفظه ضَلّ من ضل من أتباع إبليس ، وبحفظه وكلاءته سَلِم من سلم من المؤمنين أتباع الرسل .

﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴿٢٢﴾ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴿٢٣﴾ ﴾

يبين تبارك وتعالى أنه الإله الواحد الأحد ، الفرد الصمد ، الذى لا نظير له ولا شريك له ، بل هو المستقل بالأمر وحده ، من غير مشارك ولا منازع ولا معارض ، فقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا الَّذِينَ زَعَمْتُم مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾ أى : من الآلهة التى عبدت من دونه ﴿ لَا يَمْلِكُونَ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ﴾ ، كما قال تبارك وتعالى : ﴿ وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴾ [ فاطر : ١٣ ] .

وقوله تعالى : ﴿ وَمَا لَهُمْ فِيهِمَا مِن شِرْكٍ ﴾ أى : لا يملكون شيئا استقلالا ولا على سبيل الشركة ، ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ أى : وليس لله من هذه الأنداد من ظهير يستظهر به فى الأمور ، بل الخلق كلهم فقراء إليه ، عبيد لديه . قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ : من عون يعينه بشىء .

قال قتادة فى قوله : ﴿ وَمَا لَهُ مِنْهُم مِّن ظَهِيرٍ ﴾ ، من عون يعينه بشىء .

ثم قال تعالى: ﴿ وَلَا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِندَهُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ ﴾ أى : لعظمته وكبريائه لا يجترئ أحد أن يشفع عنده تعالى فى شىء إلا بعد إذنه له فى الشفاعة ، كما قال تعالى : ﴿ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِندَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ ﴾ [ البقرة : ٢٥٥ ] ، وقال : ﴿ وَكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لَا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلَّا مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَىٰ ﴾ [ النجم : ٢٦ ] ، وقال : ﴿ وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَىٰ وَهُم مِّنْ خَشْيَتِهِ مُشْفِقُونَ ﴾ [ الانبياء : ٢٨ ] . ولهذا ثبت فى الصحيحين ، من غير وجه عن رسول الله ﷺ ـ وهو سيد ولد آدم ، وأكبر شفيع عند الله : أنه حين يقوم المقام المحمود ليشفع فى الخلق كلّهم أن يأتى ربّهم لفصل القضاء ، قال : «فأسجد لله فيدعنى ما شاء الله أن يدعنى ، ويفتح على بمحامد لا أحصيها الآن ، ثم يقال: يا محمد، ارفع

رأسك ، وقل يُسمع ، وسل تُعطَه واشفع تشفع » الحديث بتمامه (١) .

وقوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ : وهذا أيضا مقام رفيع فى العظمة ، وهو أنه تعالى إذا تكلم بالوحى فسمع أهل السموات كلامه ، أرعدوا من الهيبة حتى يلحقهم مثل الغشى . قاله ابن مسعود ومسروق ، وغيرهما .

﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ أى :زال الفزع عنها . قال ابن عباس ، وابن عمر وأبو عبد الرحمن السلمى والشعبى ، وقتادة فى قوله تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يقول : جُلِّى عن قلوبهم ، وقرأ بعض السلف ـ وجاء مرفوعا ـ : « حَتَّى إِذَا فرغ » بالغين المعجمة ، ويرجع إلى الأول . فإذا كان كذلك سأل بعضهم بعضا : ماذا قال ربكم ؟ فيخبر بذلك حملة العرش للذين يلونهم ، ثم الذين يلونهم لمن تحتهم ، حتى ينتهى الخبر إلى أهل السماء الدنيا ؛ ولهذا قال : ﴿ قَالُوا الْحَقَّ ﴾ أى: أخبروا بما قال من غير زيادة ولا نقصان ﴿ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ .

وقال آخرون : بل معنى قوله : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ يعنى : المشركين عند الاحتضار ، ويوم القيامة إذا استيقظوا مما كانوا فيه من الغفلة فى الدنيا،ورجعت إليهم عقولهم يوم القيامة ، قالوا : ماذا قال ربكم ؟ فقيل لهم : الحق وأخبروا به مما كانوا عنه لاهين فى الدنيا . قال مجاهد : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا فُزِّعَ عَن قُلُوبِهِمْ ﴾ : كشف عنها الغطاء يوم القيامة .وقال الحسن: يعنى : ما فيها من الشك والتكذيب . وقال عبد الرحمن بن زيد بن أسلم : يعنى : ما فيها من الشك ، قال : فزع الشيطان عن قلوبهم وفارقهم وأمانيهم وما كان يضلهم ، ﴿ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ ﴾ قال : وهذا فى بنى آدم ، هذا عند الموت ، أقروا حين لا ينفعهم الإقرار .

وقد اختار ابن جرير القول الأول : أن الضمير عائد على الملائكة . هذا هو الحق الذى لا مرية فيه ، لصحة الأحاديث فيه والآثار :

روى البخارى عن أبى هريرة قال : إن نبى الله ﷺ قال : « إذا قضى الله الأمرَ فى السماء ، ضربت الملائكة بأجنحتها خُضعانًا لقوله ، كأنه سلسلة على صفوانَ ، فإذا فُزِّع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا للذى قال : الحقّ ، وهو العلى الكبير فيسمعها مُستَرِق السمع ، ومسترق السمع ـ هكذا بعضه فوق بعض ـ ووصف سفيان بيده فَحَرَّفها وبَدّد بين أصابعه ـ فيَسمع الكلمة ، فيلقيها إلى من تحته ، ثم يلقيها الآخر إلى من تحته ، حتى يلقيَها على لسان الساحر أو الكاهن : فَربما أدركه الشّهاب قبل أن يلقيها ، وربما ألقاها قبل أن يدركه ، فيكذب معها مائة كذبَة ، فيقال : أليس قد قال لنا يومَ كذا وكذا : كذا وكذا ؟ فيصدّق بتلك الكلمة التى سُمعت من السماء . انفرد بإخراجه البخارى دون مسلم من هذا الوجه، ورواه أبو داود والترمذى وابن ماجه (٢) . وروى الإمام أحمد عن ابن عباس قال : كان رسول الله ﷺ جالسًا فى نفر من أصحابه ـ قال عبد الرزاق : « من الأنصار » ـ فَرُمِىَ بنجم فاستنار، قال : « ما كنتم تقولون إذا كان مثلُ هذا فى الجاهلية ؟ » قالوا : كنا نقول يُولَد عظيم، أو يموت عظيم ـ قلت للزهرى: أكان يرمى بها فى الجاهلية ؟ قال : نعم ، ولكن غُلِّظت حين بعث

(١) مضى تخريجه عند الآية ٧٩ من الإسراء.

(٢) البخارى ( ٤٨٠٠)، وأبو داود (٣٩٨٩)، والترمذى (٣٢٢٣)، وابن ماجه (١٩٤).

النبى ﷺ ـ قال : فقال رسول الله ﷺ : « فإنها لا يرمى بها لموت أحد ولا لحياته ، ولكن ربنا ، تبارك وتعالى ، إذا قضى أمرا سبح حَمَلَةُ العرش [ ثم سبح أهل السماء الذين يلونهم ، حتى يبلغ التسبيح هذه السماء الدنيا ، ثم يستخبر أهل السماء الذين يَلُونَ حملة العرش ، فيقول الذين يلون حملة العرش لحملة العرش ] : ماذا قال ربكم ؟ فيخبرونهم ، ويخبر أهل كل سماء سماء ؛ حتى ينتهى الخبر إلى هذه السماء ، وتخطف الجن السمع فيرمون ، فما جاؤوا به على وجهه فهو حق ، ولكنهم يفرقون فيه ويزيدون ». ورواه مسلم والنسائى والترمذى (١) . وعن ابن عباس وقتادة : أنهما فسرا هذه الآية بابتداء إيحاء الله سبحانه إلى محمد ﷺ بعد الفترة التى كانت بينه وبين عيسى ، ولا شك أن هذا أولى ما دخل فى هذه الآية .

ربع

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ قُلِ اللَّهُ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٢٥﴾ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴿٢٦﴾ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ كَلَّا بَلْ هُوَ اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿٢٧﴾ ﴾

يقول تعالى مقررًا تفرده بالخلق والرزق ، وانفراده بالإلهية أيضا ، فكما كانوا يعترفون بأنه لا يرزقهم من السماء والأرض ـ أى : بما ينزل من المطر وينبت من الزرع ـ إلا الله ، فكذلك فليعلموا أنه لا إله غيره .

وقوله : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ أى : واحد من الفريقين مبطل ، والآخر محق ، لا سبيل إلى أن تكونوا أنتم ونحن على الهدى أو على الضلال ، بل واحد منا مصيب ، ونحن قد أقمنا البرهان على التوحيد ، فدل على بطلان ما أنتم عليه من الشرك بالله ؛ ولهذا قال : ﴿ وَإِنَّا أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ . قال قتادة : قد قال ذلك أصحاب محمد ﷺ للمشركين : والله ما نحن وإياكم على أمر واحد ، إن أحد الفريقين لمهتد . وقال عِكْرِمة : معناها : إنا نحن لعلى هدى ، وإنكم لفى ضلال مبين .

وقوله : ﴿ قُل لَّا تُسْأَلُونَ عَمَّا أَجْرَمْنَا وَلَا نُسْأَلُ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ معناه : التبرى منهم ، أى : لستم منا ولا نحن منكم ، بل ندعوكم إلى الله وإلى توحيده وإفراد العبادة له ، فإن أجبتم فأنتم منا ونحن منكم ، وإن كذبتم فنحن بُرآء منكم وأنتم برآء منا ، كما قال تعالى : ﴿ وَإِن (٢) كَذَّبُوكَ فَقُل لِّي عَمَلِي وَلَكُمْ عَمَلُكُمْ أَنتُم بَرِيئُونَ مِمَّا أَعْمَلُ وَأَنَا بَرِيءٌ مِّمَّا تَعْمَلُونَ ﴾ [ يونس : ٤١ ] ، وقال : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لَا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . وَلَا أَنَا عَابِدٌ مَّا عَبَدتُّمْ . وَلَا أَنتُمْ عَابِدُونَ مَا أَعْبُدُ . لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ ﴾ [ سورة الكافرون ] .

وقوله : ﴿ قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ﴾ أى : يوم القيامة ، يجمع بين الخلائق فى صعيد واحد ، ﴿ ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ ﴾ أى : يحكم بيننا بالعدل ، فيجزى كل عامل بعمله ، إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر . وستعلمون يومئذ لمن العزة والنصرة والسعادة الأبدية ، كما قال تعالى: ﴿ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يَوْمَئِذٍ يَتَفَرَّقُونَ . فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَهُمْ فِي رَوْضَةٍ يُحْبَرُونَ . وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا وَلِقَاءِ الْآخِرَةِ فَأُولَٰئِكَ فِي الْعَذَابِ

---

(١) المسند (١٨٨٣)، ومسلم (٢٢٢٩/ ١٢٤)، والنسائى (١١٢٧٢)، والترمذى (٣٢٢٤).

(٢) فى المخطوطة والمطبوعة : « فإن » وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه .

مُحْضَرُونَ ﴾ [ الروم : ١٤ ـ ١٦ ] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿وَهُوَ الْفَتَّاحُ الْعَلِيمُ ﴾ أى : الحاكم العادل العالم بحقائق الأمور .

وقوله : ﴿ قُلْ أَرُونِيَ الَّذِينَ أَلْحَقْتُم بِهِ شُرَكَاءَ ﴾ أى : أرونى هذه الآلهة التى جعلتموها لله أندادا وصيَّرتموها له عدلا ﴿ كَلَّا ﴾ أى : ليس له نظير ولا نديد ، ولا شريك ولا عديل ، ولهذا قال : ﴿بَلْ هُوَ اللَّهُ ﴾ : أى : الواحد الاحد الذى لا شريك له ﴿ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴾ أى : ذو العزة التى قد قهر بها كل شىء ، وَغَلَبت كل شىء ، الحكيم فى أفعاله وأقواله ، وشرعه وقدره ، تعالى وتقدس .

﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٢٨﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٩﴾ قُل لَّكُم مِّيعَادُ يَوْمٍ لَّا تَسْتَأْخِرُونَ عَنْهُ سَاعَةً وَلَا تَسْتَقْدِمُونَ ﴿٣٠﴾﴾

يقول تعالى لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ : أى : إلا إلى جميع الخلق من المكلفين ، كقوله تعالى : ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾ [ الاعراف:١٥٨ ] ﴿ تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [ الفرقان:١ ] . ﴿ بشيرا ونذيرا ﴾ أى تبشر من أطاعك بالجنة ، وتنذر من عصاك بالنار .

﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [ يوسف : ١٠٣ ] ﴿ وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِي الْأَرْضِ يُضِلُّوكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ ﴾ [ الانعام : ١١٦ ] .

وقال ابن عباس : إن الله فضل محمدًا ﷺ على أهل السماء وعلى الأنبياء . قالوا : يا بن عباس ، فيم فضله الله على الأنبياء ؟ قال : إن الله قال : ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم ﴾ ، وقال للنبى ﷺ : ﴿ وما أرسلناك إلا كافة للناس ﴾ ، فأرسله الله إلى الجن والإنس . وهذا الذى قاله ابن عباس قد ثبت فى الصحيحين رَفْعهُ عن جابر قال : قال رسول الله ﷺ : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء قبلى : نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وجعلت لى الأرض مسجدا وطهورا ، فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصل ، وأحلت لى الغنائم ، ولم تحل لاحد قبلى ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبى يبعث إلى قومه ، وبعثت إلى الناس عامة »(١) .

وفى الصحيح أيضا أن رسول الله ﷺ قال : « بعثت إلى الأسود والأحمر »(٢) . قال مجاهد : يعنى : الجن والإنس . وقال غيره : يعنى : العرب والعجم . والكل صحيح .

ثم قال تعالى مخبرا عن الكفار فى استبعادهم قيام الساعة : ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ، كقوله عز وجل : ﴿يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ الآية [ الشورى : ١٨ ] .

ثم قال تعالى : ﴿ قُل لكم ميعاد يوم لا تستأخرون عنه ساعة ولا تستقدمون ﴾ أى : لكم ميعاد مؤجل معدود محرر ، لا يزداد ولا ينتقص ، فإذا جاء فلا يؤخر ساعة ولا يقدم ، كما قال تعالى : ﴿ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ ﴾ [ نوح : ٤ ] ، وقال : ﴿ وَمَا نُؤَخِّرُهُ إِلَّا لِأَجَلٍ مَّعْدُودٍ . يَوْمَ يَأْتِ لَا تَكَلَّمُ نَفْسٌ إِلَّا بِإِذْنِهِ فَمِنْهُمْ شَقِيٌّ وَسَعِيدٌ ﴾ [ هود : ١٠٤ ، ١٠٥ ] .

(١) البخارى (٣٣٥) ، ومسلم (٣/٥٢١) .

(٢) جزء من حديث مسلم السابق .

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا ٱلْقُرْءَانِ وَلَا بِٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ ۗ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلظَّٰلِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِندَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ ٱلْقَوْلَ يَقُولُ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لَوْلَآ أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴿٣١﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوٓا۟ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَآءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴿٣٢﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُوا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوا۟ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا ۚ وَأَسَرُّوا۟ ٱلنَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا۟ ٱلْعَذَابَ ۚ وَجَعَلْنَا ٱلْأَغْلَٰلَ فِىٓ أَعْنَاقِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ۚ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾

يخبر تعالى عن تمادى الكفار فى طغيانهم وعنادهم وإصرارهم على عدم الإيمان بالقرآن وما أخبر به من أمر المعاد ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَن نُّؤْمِنَ بِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ ﴾ قال الله تعالى متهددا لهم ومتوعدا ، ومخبرا عن مواقفهم الذليلة بين يديه فى حال تخاصمهم وتحاجهم : ﴿يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ وهم الأتباع ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا ﴾ منهم وهم قادتهم وساداتهم : ﴿ لَوْلَا أَنتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ ﴾ أى : لولا أنتم تصدوننا ، لكنا اتبعنا الرسل وآمنا بما جاؤونا به . فقال لهم القادة والسادة ، وهم الذين استكبروا : ﴿ أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم ﴾ أى : نحن ما فعلنا بكم أكثر من أنَّا دعوناكم فاتبعتمونا من غير دليل ولا برهان ، وخالفتم الأدلة والبراهين والحجج التى جاءت بها الرسل ، لشهوتكم واختياركم لذلك ؛ ولهذا قالوا : ﴿ بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ ﴾ .

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ أى : بل كنتم تمكرون بنا ليلا ونهارا ، وتغرُّونا وتُمنّونا ، وتخبرونا أنا على هدى وأنا على شىء ، فإذا جميع ذلك باطل وكَذِبٌ ومَيْن. قال قتادة ، وابن زيد : ﴿ بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ ﴾ يقول : بل مكركم بالليل والنهار ﴿ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَن نَّكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَندَادًا ﴾ أى نظراء وآلهة معه ، وتقيموا لنا شُبَهاً وأشياءَ من المحال ، تضلونا بها ﴿ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ ﴾ أى : الجميع من السادة والأتباع ، كُلٌّ ندم على ما سَلَف منه . ﴿ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ : وهى السلاسل التى تجمع أيديهم مع أعناقهم ﴿ هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ أى : إنما نجازيكم بأعمالكم، كُلٌّ بحسبه ، للقادة عذاب بحسبهم ، وللأتباع بحسبهم ﴿ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ ﴾ [ الأعراف : ٣٨ ] .

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا فِى قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُوا۟ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٣٦﴾ وَمَآ أَمْوَٰلُكُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُكُم بِٱلَّتِى تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَىٰٓ إِلَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا ۖ فَأُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَزَآءُ ٱلضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا۟ وَهُمْ فِى ٱلْغُرُفَٰتِ ءَامِنُونَ ﴿٣٧﴾ وَٱلَّذِينَ يَسْعَوْنَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا مُعَٰجِزِينَ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ٱلْعَذَابِ مُحْضَرُونَ ﴿٣٨﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّى يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ وَيَقْدِرُ لَهُۥ ۚ وَمَآ أَنفَقْتُم مِّن شَىْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُۥ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى مسليا لنبيه ﷺ ، وآمرا له بالتأسى بمن قبله من الرسل ، ومخبره بأنه ما بعث نبيا

فى قرية إلا كذبه مترفوها ، واتبعه ضعفاؤهم ، كما قال قوم نوح : ﴿ أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ ﴾ [ الشعراء : ١١١ ] ﴿ وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلا الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ ﴾ [ هود : ٢٧ ] ، وقال الكبراء من قوم صالح : ﴿ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ آمَنَ مِنْهُمْ أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُرْسَلٌ مِنْ رَبِّهِ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ . قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي آمَنْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ [ الأعراف ٧٥ ، ٧٦ ] وقال تعالى : ﴿وَكَذَلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لِيَقُولُوا أَهَؤُلاءِ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنْ بَيْنِنَا أَلَيْسَ اللَّهُ بِأَعْلَمَ بِالشَّاكِرِينَ ﴾ [الأنعام:٥٣] ؟ وقال : ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ﴾ [ الأنعام : ١٢٢ ] ، وقال : ﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ ﴾ [ الإسراء : ١٦ ]. وقال هاهنا : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ ﴾ أى : نبى أو رسول ﴿ إِلا قَالَ مُتْرَفُوهَا ﴾ وهم أولو النعمة والحشمة والثروة والرياسة .

قال قتادة : هم جبّابرتهم وقادتهم ورؤوسهم فى الشر . ﴿ إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ ﴾ أى: لا نؤمن به ولا نتبعه . وهكذا قال هرقل لأبى سفيان حين سأله عن تلك المسائل ، قال فيها : وسألتك : أضعفاء الناس اتبعه أم أشرافهم فزعمت : بل ضعفاؤهم ، وهم أتباع الرسل .

وقوله تعالى إخبارا عن المترفين المكذبين : ﴿ وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلادًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴾ أى: افتخروا بكثرة الأموال والأولاد ، واعتقدوا أن ذلك دليل على محبة الله لهم واعتنائه بهم ، وأنه ما كان ليعطيهم هذا فى الدنيا ، ثم يعذبهم فى الآخرة ، وهيهات لهم ذلك . قال الله : ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبَنِينَ . نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ [ المؤمنون : ٥٥ ، ٥٦ ] وقال : ﴿ فَلا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلا أَوْلادُهُمْ إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنْفُسُهُمْ وَهُمْ كَافِرُونَ ﴾ [التوبة : ٥٥ ] ، وقال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلا إِنَّهُ كَانَ لآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا ﴾ [ المدثر: ١١ ـ ١٧ ].

وقد أخبر الله عن صاحب تينك الجنتين : أنه كان ذا مال وولد وثمر ، ثم لم تُغن عنه شيئا ، بل سُلب ذلك كله فى الدنيا قبل الآخرة ؛ ولهذا قال تعالى هاهنا : ﴿ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ﴾ أى : يعطى المال لمن يحب ومن لا يحب ، فيفقر من يشاء ويغنى من يشاء ، وله الحكمة التامة البالغة ، والحجة الدامغة القاطعة ﴿ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

ثم قال: ﴿ وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى ﴾ أى: ليست هذه دليلا على محبتنا لكم ، ولا اعتنائنا بكم .

روى الإمام أحمد عن أبى هريرة ، قال : قال سول الله ﷺ : « إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم ، ولكن إنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم » . ورواه مسلم وابن ماجه(١) .

ولهذا قال : ﴿ إِلا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ﴾ أى : إنما يقربكم عندنا زلفى الإيمان والعمل الصالح ، ﴿ فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا ﴾ أى : تضاعف لهم الحسنة بعشرة أمثالها ، إلى سبعمائة ضعف ﴿وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ ﴾ أى : فى منازل الجنة العالية آمنون من كل بأس وخوف وأذى ، ومن كل شر يُحذر منه .

(١) المسند (٢/٥٣٩) ، ومسلم (٢٥٦٤/٣٣) ، وابن ماجه (٤١٤٣) .

﴿والذين يسعون في آياتنا معاجزين﴾ أى : يسعون فى الصد عن سبيل الله ، واتباع الرسل والتصديق بآياته ﴿أولئك في العذاب محضرون﴾ أى : جميعهم مجزيون بأعمالهم فيها بحسبهم .

وقوله : ﴿قل إن ربي يبسط الرزق لمن يشاء من عباده ويقدر له﴾ أى : بحسب ما له فى ذلك من الحكمة ، يبسط على هذا من المال كثيرا ، ويضيق على هذا ويقتر عليه رزقه جداً ، وله فى ذلك من الحكمة ما لا يدركها غيره ، كما قال تعالى : ﴿انظر كيف فضلنا بعضهم على بعض وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا﴾ [ الإسراء : ٢١ ] أى : كما هم متفاوتون فى الدنيا : هذا فقير مدقع ، وهذا غنى موسَّع عليه، فكذلك هم فى الآخرة : هذا فى الغُرفات فى أعلى الدرجات ، وهذا فى الغَمرات فى أسفل الدركات . وأطيب الناس فى الدنيا كما قال رسول الله ﷺ: «قد أفلح من أسلم ورُزق كَفَافا، وقنَّعه الله بما آتاه». رواه مسلم من حديث ابن عَمْرو [١] .

وقوله : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ أى : مهما أنفقتم من شىء فيما أمركم به وأباحه لكم، فهو يخلفه عليكم في الدنيا بالبدل ، وفى الآخرة بالجزاء والثواب ، كما ثبت فى الحديث: « يقول الله تعالى : أنفق أنفق عليك » [٢]. وفى الحديث : أن ملكين يَصيحان كل يوم، يقول أحدهما: «اللهم أعط مُمْسكا تَلَفًا » ، ويقول الآخر : « اللهم أعط منفقا خَلَفًا » [٣] . وقال مجاهد : لا يتأولن أحدكم هذه الآية : ﴿وما أنفقتم من شيء فهو يخلفه﴾ : إذا كان عند أحدكم ما يقيمه فليقصد فيه ، فإن الرزق مقسوم.

﴿ويوم يحشرهم جميعا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون ﴿٤٠﴾ قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون ﴿٤١﴾ فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴿٤٢﴾﴾

يخبر تعالى أنه يقرع المشركين يوم القيامة على رؤوس الخلائق ، فيسأل الملائكة الذين كان المشركون يزعمون أنهم يعبدون الأنداد التى هى على صور الملائكة ليقربوهم إلى الله زلفى ، فيقول للملائكة : ﴿أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون﴾ أى : أنتم أمرتم هؤلاء بعبادتكم ؟ كما قال فى سورة الفرقان: ﴿أأنتم أضللتم عبادي هؤلاء أم هم ضلوا السبيل﴾ [ الفرقان : ١٧ ] ،وكما يقول لعيسى عليه السلام: ﴿أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق﴾ [ المائدة : ١١٦ ] . وهكذا تقول الملائكة: ﴿سبحانك﴾ أى :تعاليتَ وتقدست عن أن يكون معك إله ﴿أنت ولينا من دونهم﴾ أى : نحن عبيدك ونبرأ إليك من هؤلاء ﴿بل كانوا يعبدون الجن﴾ يعنون: الشياطين؛ لأنهم هم الذين يزينون لهم عبادة الأوثان ويضلونهم ﴿أكثرهم بهم مؤمنون﴾ كما قال تعالى : ﴿إن يدعون من دونه إلا إناثا وإن يدعون إلا شيطانا مريدا﴾ [ النساء: ١١٧ ]. قال الله تعالى: ﴿فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعا ولا ضرا﴾ أى: لا يقع لكم نفع ممن كنتم ترجون نفعه اليوم من الأنداد والأوثان ، التى ادخرتم عبادتها لشدائدكم وكُرَبكم ، اليوم لا يملكون لكم نفعا ولا ضرا ﴿ونقول للذين ظلموا﴾ وهم المشركون ﴿ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون﴾ أى : يقال لهم ذلك ، تقريعا وتوبيخا .

---

(١) مسلم (١٠٥٤/١٢٥)، وفى المخطوطة والمطبوعة: «من حديث ابن عُمَر » وهو خطأ، صوابه ما أثبتناه من مسلم.
(٢) البخارى (٤٦٨٤)، ومسلم (٩٩٣/٣٦). (٣) البخارى (١٤٤٢) ، ومسلم (١٠١٠/٥٧) .

﴿ وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِلَّا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ ءَابَآؤُكُمْ وَقَالُوا۟ مَا هَٰذَآ إِفْكٌ مُّفْتَرًى وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٤٣﴾ وَمَآ ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَآ أَرْسَلْنَآ إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴿٤٤﴾ وَكَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَمَا بَلَغُوا۟ مِعْشَارَ مَآ ءَاتَيْنَٰهُمْ فَكَذَّبُوا۟ رُسُلِى فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿٤٥﴾ ﴾

يخبر تعالى عن الكفار أنهم يستحقون منه العقوبة والاليم من العذاب ؛ لأنهم كانوا إذا تتلى عليهم آياته بينات يسمعونها غَضَّة طرية من لسان رسوله ﷺ ﴿ قَالُوا مَا هَذَا إِلا رَجُلٌ يُرِيدُ أَن يَصُدَّكُمْ عَمَّا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُكُمْ ﴾ يعنون أن دين آبائهم هو الحق ، وأن ما جاءهم به الرسول عندهم باطل ـ عليهم وعلى آبائهم لعائن الله ـ ﴿وَقَالُوا مَا هَذَا إِلا إِفْكٌ مُفْتَرًى ﴾ يعنون : القرآن ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلْحَقِّ لَمَّا جَاءَهُمْ إِنْ هَذَا إِلا سِحْرٌ مُبِينٌ ﴾ . قال الله تعالى : ﴿ وَمَا آتَيْنَاهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ ﴾ أى : ما أنزل الله على العرب من كتاب قبل القرآن ، وما أرسل إليهم نبيًا قبل محمد ﷺ ، وقد كانوا يَوَدّون ذلك ويقولون : لو جاءنا نذير أو أنزل علينا كتاب ، لكنا أهدى من غيرنا ، فلما مَنَّ الله عليهم بذلك كذبوه وعاندوه وجحدوه .

ثم قال تعالى : ﴿ وَكَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِم ﴾ أى : من الامم ﴿ وَمَا بَلَغُوا مِعْشَارَ مَا آتَيْنَاهُمْ ﴾ قال ابن عباس : أى من القوة فى الدنيا . وكذا قال قتادة ، والسدى ، وابن زيد . كما قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِن مَّكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَارًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلا أَبْصَارُهُمْ وَلا أَفْئِدَتُهُم مِّن شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [ الاحقاف : ٢٦ ] ، ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَكْثَرَ مِنْهُمْ وَأَشَدَّ قُوَّةً ﴾ [ غافر : ٨٢ ] ، أى : وما دفع ذلك عنهم عذاب الله ولا رده ، بل دمر الله عليهم لما كذبوا رسله ؛ ولهذا قال : ﴿ فَكَذَّبُوا رُسُلِي فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ اى : كيف كان نكالى وعقابى وانتصارى لرسلى ؟

ربع

﴿ قُلْ إِنَّمَآ أَعِظُكُم بِوَٰحِدَةٍ أَن تَقُومُوا۟ لِلَّهِ مَثْنَىٰ وَفُرَٰدَىٰ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا۟ مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَىْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴿٤٦﴾ ﴾

يقول تعالى : قل يا محمد لهؤلاء الكافرين الزاعمين أنك مجنون : ﴿ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ ﴾ أى : إنما آمركم بواحدة ، وهى : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ أى : تقوموا قياما خالصًا لله ، من غير هوى ولا عصبية ، فيسأل بعضكم بعضا : هل بمحمد من جنون ؟ فينصح بعضكم بعضا ﴿ ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا ﴾ أى : ينظر الرجل لنفسه فى أمر محمد ﷺ ، ويسأل غيره من الناس عن شأنه إن أشكل عليه ، ويتفكر فى ذلك ؛ ولهذا قال : ﴿ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى ثُمَّ تَتَفَكَّرُوا مَا بِصَاحِبِكُم مِّن جِنَّةٍ ﴾ . هذا معنى ما ذكره مجاهد وقتادة ، وغيرهم ، وهذا هو المراد من الآية .

وقوله تعالى : ﴿ إِنْ هُوَ إِلا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ ﴾ : روى البخارى عن ابن عباس قال : صَعِدَ النبى ﷺ الصفا ذات يوم ، فقال : « يا صباحاه » . فاجتمعت إليه قريش ، فقالوا : ما لك ؟ فقال : « أرأيتم لو أخبرتكم أن العدو يُصَبِّحكم أو يُمَسِّيكم، أما كنتم تصدقونى ؟ » قالوا : بلى .

قال: « فإني نذير لكم بين يدى عذاب شديد » . فقال أبو لهب: تبا لك! ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ﴾ [ المسد ] (١) . وروى الإمام أحمد عن بريدة قال : خرج إلينا رسول الله ﷺ يوما فنادى ثلاث مرات فقال: « أيها الناس، تدرون ما مثلى ومثلكم ؟ » قالوا : الله ورسوله أعلم . قال : « إنما مثلى ومثلكم مثلُ قوم خافوا عدوا يأتيهم، فبعثوا رجلا يتراءى لهم ، فبينما هو كذلك أبصر العدو ،فأقبل لينذرهم وخشى أن يدركه العدو قبل أن ينذر قومه ،فأهوى بثوبه: أيها الناس ، أوتيتم . أيها الناس، أوتيتم ـ ثلاث مرات » (٢) .

﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٤٧﴾ قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ ﴿٤٨﴾ قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ ﴿٤٩﴾ قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ ﴿٥٠﴾﴾

يقول تعالى آمرًا رسوله ﷺ أن يقول للمشركين : ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾ أى : لا أريد منكم جُعلا ولا عَطاء على أداء رسالة الله إليكم ، ونصحى إياكم ، وأمركم بعبادة الله ﴿إِنْ أَجْرِيَ إِلَّا عَلَى اللَّهِ﴾ أى : إنما اطلب ثواب ذلك عند الله ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ أى : عالم بجميع الأمور، بما أنا عليه من إخبارى عنه بإرساله إياى إليكم ، وما أنتم عليه .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِنَّ رَبِّي يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ كقوله تعالى : ﴿يُلْقِي الرُّوحَ مِنْ أَمْرِهِ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ﴾ [ غافر : ١٥ ] . أى : يرسل الملك إلى من يشاء من عباده من أهل الأرض ، وهو علام الغيوب ، فلا تخفى عليه خافية فى السموات ولا فى الأرض .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾ أى : جاء الحق من الله والشرع العظيم ، وذهبَ الباطل وزهق واضمحل، كقوله : ﴿بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾ [ الأنبياء ١٧ ]، ولهذا لما دخل رسول الله ﷺ المسجد الحرام يوم الفتح ، ووجد تلك الأصنام منصوبة حول الكعبة ، جعل يَطعن الصنم بسِيَة قَوْسه ، ويقرأ : ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ ، ﴿قُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَمَا يُبْدِئُ الْبَاطِلُ وَمَا يُعِيدُ﴾. رواه البخارى ومسلم والترمذى والنسائى عن ابن مسعود ، به (٣) . أى: لم يبق للباطل مقالة ولا رياسة ولا كلمة .

وقوله تعالى : ﴿قُلْ إِن ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسِي وَإِنِ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ أى : الخير كله من عند الله ، وفيما أنزله عز وجل من الوحى والحق المبين فيه الهدى والبيان والرشاد ، ومن ضل فإنما يضل من تلقاء نفسه ﴿إِنَّهُ سَمِيعٌ قَرِيبٌ﴾ أى: سميع لأقوال عباده ، قريب يجيب دعوة الداعى إذا دعاه . وقد روى النسائى هاهنا حديث أبي موسى الذى فى الصحيحين : « إنكم لا تدعون أصم ولا غائبا ، إنما تدعون سميعا قريبا مجيبا » (٤) .

﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٥١﴾ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّىٰ لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِن

---

(١) البخارى (٤٨٠١) . (٢) المسند (٥/٣٤٨) وإسناده صحيح .
(٣) البخارى (٢٤٧٨، ٤٢٨٧)، ومسلم (١٧٨١/٨٧)، والترمذى (٣١٣٨)، والنسائى فى الكبرى (١١٤٢٨) .
(٤) النسائى (١١٤٢٧)، والبخارى (٤٢٠٥)، ومسلم (٢٧٠٤/٤٥).

﴿ مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥١﴾ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ۖ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ ۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟ فِى شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴿٥٤﴾ ﴾

يقول تعالى : ولو ترى ـ يا محمد ـ إذ فَزِع هؤلاء المكذبون يوم القيامة ﴿ فلا فَوْتَ ﴾ أى: فلا مفر لهم ، ولا وزر ولا ملجأ ﴿ وأُخِذُوا مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴾ أى : لم يمكنوا أن يمنعوا فى الهرب ، بل أخذوا من أول وهلة . قال الحسن البصرى : حين خرجوا من قبورهم . وقال عبد الرحمن بن زيد : يعنى: قتلهم يوم بدر. والصحيح: أن المراد بذلك يوم القيامة ، وهو الطامة العظمى ، وإن كان ما ذكر متصلا بذلك.

﴿ وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ ﴾ أى : يوم القيامة يقولون : آمنا بالله وبكتبه ورسله ، كما قال تعالى : ﴿ وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا۟ رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَٱرْجِعْنَا نَعْمَلْ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ﴾ [ السجدة : ١٢ ] ؛ ولهذا قال تعالى : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ أى : وكيف لهم تعاطى الإيمان وقد بعدوا عن محل قبوله منهم وصاروا إلى الدار الآخرة ، وهى دار الجزاء لا دار الابتلاء ، فلو كانوا آمنوا فى الدنيا لكان ذلك نافعهم ، ولكن بعد مصيرهم إلى الدار الآخرة لا سبيل لهم إلى قبول الإيمان ، كما لا سبيل إلى حصول الشىء لمن يتناوله من بعيد. قال مجاهد : ﴿ وَأَنَّىٰ لَهُمُ ٱلتَّنَاوُشُ ﴾ قال: التناول لذلك. وقال الزهرى : التناوش : تناولهم الإيمان وهم فى الآخرة ، وقد انقطعت عنهم الدنيا . وقال الحسن البصرى : أما إنهم طلبوا الأمر من حيث لا ينال ، تعاطوا الإيمان من مكان بعيد . وقال ابن عباس : طلبوا الرجعة إلى الدنيا والتوبة مما هم فيه ، وليس بحين رجعة ولا توبة . وكذا قال محمد بن كعب القرظى . وقوله : ﴿ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِهِۦ مِن قَبْلُ ﴾ أى : كيف يحصل لهم الإيمان فى الآخرة ، وقد كفروا بالحق فى الدنيا وكذبوا بالرسل ؟ ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ مِن مَّكَانٍۭ بَعِيدٍ ﴾ قال زيد بن أسلم : ﴿ وَيَقْذِفُونَ بِٱلْغَيْبِ ﴾ قال: بالظن . قلت : كما قال تعالى : ﴿ رَجْمًۢا بِٱلْغَيْبِ ﴾ [ الكهف : ٢٢ ] ، فتارة يقولون : شاعر . وتارة يقولون : كاهن . وتارة يقولون : ساحر . وتارة يقولون : مجنون . إلى غير ذلك من الأقوال الباطلة، ويكذبون بالغيب والنشور والمعاد ، ويقولون : ﴿ إِن نَّظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٢ ] . قال قتادة : يرجمون بالظن ، لا بعث ولا جنة ولا نار .

وقوله : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ قال الحسن البصرى ، والضحاك ، وغيرهما : يعنى: الإيمان . وقال السُّدِّى : هى : التوبة . وهذا اختيار ابن جرير ، رحمه الله . وقال مجاهد : ﴿ وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ ﴾ من هذه الدنيا ، من مال وزهرة وأهل . وروى نحوه عن ابن عباس وابن عمر والربيع بن أنس . وهو قول البخارى وجماعة . والصحيح : أنه لا منافاة بين القولين ؛ فإنه قد حيل بينهم وبين شهواتهم فى الدنيا وبين ما طلبوه فى الآخرة ، فمنعوا منه. وقوله تعالى: ﴿كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِم مِّن قَبْلُ﴾ أى: كما جرى للأمم الماضية المكذبة للرسل، لما جاءهم بأس الله تمنوا أن لو آمنوا فلم يقبل منهم ﴿ فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ. فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا۟ بَأْسَنَا سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴾ [ غافر : ٨٤ ، ٨٥ ] . ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُّرِيبٍ ﴾ أى : كانوا فى الدنيا فى شك وريبة ، فلهذا لم يتقبل منهم الإيمان عند معاينة العذاب . قال قتادة : إياكم والشك والريبة ، فإنه من مات على شك بُعِثَ عليه ، ومن مات على يقين بعث عليه .